

استغلال تعليم اللهجات الجزائرية في الجزائر للنيل من العربية الفصحى خلال فترة الاستعمار الفرنسي

*Using the teaching of Algerian dialects in Algeria to undermine Arabic
during the French colonial period*

سمير براهيم *

جامعة المسيلة – الجزائر

samir.braham@univ-msila.dz

ملخص:	معلومات المقال
أنشأت السلطات الاستعمارية خلال المرحلة التي أعقبت احتلال الجزائر العديد من المعاهد التي تعنى بدراسة اللهجات العربية والأمازيغية وتعليمها. ولعل من أهم هذه الهياكل المدرسة العليا للأدب في الجزائر العاصمة التي أصبحت تسمى فيما بعد بكلية الآداب فضلا على دار المعلمين (école normale) في بوزريعة بالعاصمة. وقد حظيت هذه الهياكل التربوية بدعم لا محدود من طرف السلطات الاستعمارية، خاصة وزارة الدفاع التي أشرفت بشكل مباشر على الباحثين في المجالات سالف الذكر، حتى أن بعض الباحثين كانوا ضباط في الجيش الاستعماري مثل هانوطو وبطبيعة الحال لم يكن الهدف وراء هذه الدراسات هدف علمي محض، بل كانت تسعى لتكريس القبضة الاستعمارية على الجزائر.	تاريخ الإرسال: 2022/04/09 تاريخ القبول: 2022/04/16 ✓ الكلمات المفتاحية: ✓ تعليم ✓ لهجات ✓ استعمار فرنسي
Abstract :	Article info
During the period following the military occupation of Algeria, the colonial authorities established several educational institutions for the study of the Arabic and Amazigh dialects. Perhaps the most important of these structures is the Higher School of Literature in Algiers, later called the Faculty of Arts, as well as the normal school in Bouzariah. These educational structures received unlimited support from the colonial authorities, especially the Ministry of Defence, which oversaw researchers in the above-mentioned fields, and even some researchers were officers of the colonial army, such as Hanoteau.	Received 16/04/2022 Accepted 16/04/2022 Keywords: ✓ Education ✓ Dialects ✓ Keyword: French colonisation

مقدمة:

حاولت فرنسا على غرار كل القوى الاستعمارية طمس معالم هوية الشعوب الواقعة تحت نير سيطرتها، والجزائر في ذلك لم تكن استثناء خاصة وأن الاستعمار الفرنسي للجزائر كان استعماراً استيطانياً يعتبرها جزءاً لا يتجزأ من التراب الفرنسي ويبدل المساعي الحثيثة لضمان بقاءها فرنسية قلباً وقالباً. استوعب الاستعمار الفرنسي مبكراً أن هذه السياسة لن تنجح إلا بالقضاء على الإسلام المترسخ في قلوب الجزائريين منذ 13 قرن، ولم يكن السبيل إلى ذلك إلا بمحاربة العربية التي هي لغة الإسلام القرآن الكريم، وذلك من خلال إيلاء أهمية للهجات العربية ودراستها بهدف تسهيل تواصل ضباطها وزبائنها مع الجزائريين من جهة وكذا تعميم استعمالها بين الجزائريين على حساب الفصحى باللجوء إلى التضييق على هذه الأخيرة وغلق المدارس التي تحافظ عليها حية في أفئدة الجزائريين، لكن الأخطر من ذلك كانت محاولات زرع الفتنة بين اللغة العربية الفصحى واللهجات الأمازيغية مع تضمين هذه السياسة بطبيعية الحال التركيز على الجانب العرقي لزراعة بذور الشقاق والفرقة بين الجزائريين عملاً بمبدأ "فرق تسد". لكن كيف حاول الاستعمار تطبيق هذه السياسة في الجزائر وهل نجح فعلاً في تحقيق أهدافه؟ وللإجابة عن هذه الإشكاليات، لجأنا في هذه المداخلة للمنهج التاريخي نظراً لطابع موضوع الملتقى التاريخي المحض فضلاً عن المنهج الوصفي الذي رأينا أنه لا غنى عنه لتشخيص ظاهرة اللهجات باعتبارها ظاهرة لغوية.

1- الوضعية اللغوية في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي:

لا يختلف اثنان أن الاستعمار الفرنسي الذي لم يمض على خروجه من الجزائر سوى 60 سنة، لعب دوراً كبيراً في بلورة المشهد اللغوي بالجزائر الحالي، خاصة فيما يتعلق بالتفاعل بين اللغتين العربية الفصحى والفرنسية فضلاً عن اللهجات العربية والأمازيغية المنتشرة عبر تراب الوطن.

إن الخريطة التعبيرية توضح لنا بأن درجة استعمال اللغات في الجزائر ليس متماثلاً، فالدارجات الجزائرية تهيمن على السوق الشفوية و تحقق تواصلاً بين المجموعات اللغوية المختلفة فالعربية الفصحى واللغة الفرنسية لا تستعملهما إلا أقلية من المثقفين، والأمازيغية أمازيغيات، وهي شتات لها مناطقها النافذة وتأديتها المختلفة التي لا تتفاهم مع بعضها البعض. (بلعيد، 2004، ص 9)

و من هذا التقسيم يمكن إجمال الوضع اللغوي الجزائري كما يلي :

1- اللغات ذات الانتشار الواسع : العاميات أو الدارجات العربية، وهي متنوعة ولكنها تتحكم إلى قواسم مشتركة.

2- اللغات المحلية : الأمازيغية بمختلف تأديتها ولهجاتها.

3- اللغات الكلاسيكية : العربية الفصحى و اللغة الفرنسية . (بلعيد، 2004، ص 11)

لم يكن التنوع في اللغة أو اللهجة وكذا التنوع عبر اللغات مركز الاهتمام في النظريات اللسانية المهيمنة لهذا القرن- نظرية سوسور (Saussure)، المدرسة الأمريكية، مدرسة براغ، البنيوية، و نظرية شومسكي. ومن نتائج ذلك أن التنظير اللساني ارتكز بشكل كبير على الأشكال المعيارية (Standardized) للغات أكثر من الأشكال الأكثر تنوعاً للحديث الطبيعي. (ميلروي، 2009، ص ص 105-106)

ليس التعدد اللغوي - خلافاً لما يمكن للبعض أن يتصوره - وضعاً خاصاً، وليس مقصوراً على مناطق مخصوصة، ولا هو سمة من سمات العالم الثالث على وجه التحديد، أو من سمات البلدان النامية التي تتصورها بدهاء موزعة بين "لهجاتها"، و"لغاتها المحلية"، و"لغاتنا"، فالتعدد قدر مشترك، وإن ظهرت بأشكال مختلفة في كل حال... ويضيف كالفي أنه لا ينبغي الخلط بين اللغات، الشعوب والأعراق، فالناس الذين يتكلمون اليوم لغة هندية-أوروبية ليسوا بالضرورة من "عرق" هندي -أوربي... و نرى في السياق نفسه أن هناك أغلبية كبيرة من سكان المغرب العربي من أصل بربري، ولكن لسانهم عربي. (كالفي، 2008، ص 205).

اللغة عامل أساسي في بناء الأوطان، وفي توحيد الأفراد، وفي التزام المجموعات بالوطن، تقوي الشعور بالانتماء إلى الوطن، وتنمي الحاجة إلى التعاون بين المواطنين، وتربط الفرد بجدوده وبتراثه وبتقاليده، وتساعد في تطوير النظام التعليمي بحيث تتاح للجميع فرص التعلم. واللغة عامل انقسامي في الوطن الذي يتكلم أبناؤه أكثر من لغة واحدة. فعندما تشعر مجموعة لغوية بالغبن في وطنها يتفاقم خطر الانفصال بسبب العامل اللغوي، وتقوى النزعة الانفصالية في وجود التفاوت الاجتماعي وانعدام المساواة في فرص العمل، إذ تتحد الأقليات التي تتكلم اللغة الواحدة في حركات وتنظيمات سياسية تعمل على رفع شأن الجماعة ككل، وغالبا ما تكون الجماعة مغلوطة على أمرها في النواحي الاجتماعية والاقتصادية لأنها لا تتكلم اللغة الرسمية والنافذة، مما يزيد من شعورها بالغبن". (زكريا، 1993، ص 14)

2- تعريف اللهجة:

حتى نتعرف على اللهجة بصورة أوضح لابد من تعريفها لغة واصطلاحا على النحو التالي:

أ- لغة:

ورد في كتاب العين لصاحبه الخليل بن أحمد الفراهيدي أن اللهجة هي "طرف اللسان، ويقال جرس الكلام، ويقال: فصيح اللهجة، وهي لغته التي جُبل عليها فأعتادها، ونشأ عليها". (الخليل، 2003، ص ص 104-105)

أما ابن فارس فيقول في معجم مقاييس اللغة أن "اللام والهاء والجيم: أصل صحيح يدل على المثابرة على الشيء وملازمته، والأصل الآخر دلّ على اختلاط في الأمر. يقال: لهج بالشيء: إذا أغري به وثابر عليه وهو لهج. وقولهم: هو فصيح اللهجة، واللهجة: اللسان بما ينطق به من الكلام، وسميت لهجة، لأنه كل يلهج بلغته وكلامه. والأصل الآخر قولهم: لهججت عليه أمره: إذا خلطته". (ابن فارس، 1979، ص ص 214-215).

ومن جهته يقول حاتم صالح الضامن أن "اللهجة هي اللغة عند علماء العربية القدماء فلغة تميم ولغة هذيل ولغة طيء التي جاءت في المعجمات العربية لا يريدون بها سوى ما تعنيه كلمة (اللهجة). كما أطلق على اللهجة لفظ (اللحن)، قال أحد الأعراب: (ليس هذا لحني ولا لحن قومي). (الضامن، 1989، ص 32)

ب- اصطلاحا:

يشير الأستاذ إبراهيم أنيس أن اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي "مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشارك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات. لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات، هي التي اصطلاح على تسميتها باللغة. فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص. فاللغة تشتمل على عدة لهجات، لكل منها ما يميزها. وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات. (أنيس، 1965، ص 15)

بالنسبة لجون ديبيو Jean Dubois فهي "نظام من الإشارات والقواعد التركيبية من نفس أصل نظام آخر يتم اعتباره لغة، لكنها لم تكتسب نفس الوضع الثقافي (culturel Statut) والاجتماعي لهذه اللغة التي تطورت بشكل مستقل عنها: عندما

نقول أن البيكاردية لهجة فرنسية، هذا لا يعني أنها نتجت من تطور (أو بالأحرى من "تشوه") اللغة الفرنسية. (Dubois et autres, 2002, P143)

كما ذهب ماري نوال غاري بريور إلى أن اصطلاح اللهجة" يطلق في مقابل اللسان، على كل نسق لغوي لا يستفيد من الوضع السوسيوثقافي المرتبط بـ"اللسان". ففي فرنسا مثلا، يمكننا أن نعتبر الفرنسية (بعد ثورة 1789) "اللسان الوطني"؛ ويمكننا في المقابل أن نعد البروفانسية أو البيكاردي بوصفها لهجات: فهما تحتكمان للأصل نفسه على غرار اللسان الوطني، ولكنهما تطرحان جملة من الخصوصيات التي تستمد مرجعيتها من اختلافات التطور من منطقة لأخرى. (بريور، 2007، ص ص 47-48).

أما الأستاذ مبارك مبارك فيقول في معجمه للمصطلحات اللسانية أن اللهجة هي: "اللغة التي يتفق عليها جماعة من الناس، ولها صفات خاصة بها تميزها عن غيرها من الناحية الصوتية أو المفرداتية أو النحوية أو الصرفية، وقد تتطور هذه اللهجة لتصبح لغة مستقلة مع مرور الزمن، أو أن تندمج مع لهجات أخرى فتكوّن لغة قائمة بنفسها، كما جرى بين لهجات القبائل العربية التي اندمجت فيما بينها وكوّنت اللغة العربية التي يكتبها ويحكمها الناس في الأقطار العربية. (مبارك، 1995، ص ص 81-82)

إذا أردنا أن نضع تاريخا للعامية الحديثة، فإننا يمكن أن نقول إن العامية ظهرت منذ الفتح الإسلامي بعد أن اختلط العرب بالأمم الأخرى، واستمرت هذه العامية في تأسيس بنيتها وتجزئتها، ومخاصمة الفصحى حتى تميزت بشكل واضح الملامح والقسمات، واتضحت سماتها في كل جوانب اللغة ومستوياتها، فظهرت في الجانب الصوتي، وفي الصيغ والتراكيب وطرائق التعبير حتى شملت المادة اللغوية كلها. وقد تنبه علماءنا لهذا الأمر، ورصدوا تلك التطورات ووضعوا الكتب والمؤلفات الكثيرة التي تنبه على فداحة الأمر، وتحذر من سوء العاقبة، كل تلك الجهود لم تستطع أن توقف زحف العامية وخطرها على الفصحى. (كايد، 2002، ص 69)

3- السياسة اللغوية:

الثابت والمتعارف عليه أن "اللغات تتغير، تحت مفعول بناها الداخلية واحتكاكها باللغات الأخرى والمواقف السياسية. غير أنه يمكن تغييرها والتدخل لإحداث تغيير في صورتها. إن العمل أو الاشتغال على اللغة قد يكون له غايات مختلفة أهمها تحديث اللغة (الخط، المفردات) و"تصفيتها" أو الدفاع عنها. (كالفي، 2006، 113)

لذا يعتبر كالفي: "أن السياسة اللغوية هي مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة في الوطن" (كالفي، 2008، ص 221)، ومن هنا خصتها حكومات الدول المتقدمة بأهمية خاصة؛ لما لها من انعكاسات على الاستقرار الاجتماعي والسلم المدني.

ولا بد لنا أن نذكر هنا بأن تدبير وضعية لسانية ما يفترض تدخلا مقصودا للدولة، يكون الهدف منه هو تغيير مسار اللغة "الطبيعي" في علاقاتها بلغات أخرى توجد معها في اتصال وتفاعل. وينبغي لذلك معالجة الوضعية القانونية لهذه اللغة(ات) داخل دولة معينة (لغات رسمية ووطنية)، ومعالجة متنها من خلال تدبير إشكالية السنن والبنية اللسانية (الحرف والقواعد الإملائية والمعجم والنحو والصرف). (خلفي، 2009، 2009).

وكثيرا ما اقترنت السياسة اللغوية بالدول والحكومات، وفي ذلك يقول لويس جان كالفي "تبدو أن السياسة اللغوية كما عرفناها مرتبطة بالدولة. وليس هذا خيارا نظريا من جانبنا، وإنما هو تقرير للواقع. ولا ينبغي أن يستبعد القول بارتباط السياسة

اللغوية بالدولة احتمال وجود سياسة لغوية عابرة للحدود أو، على العكس من ذلك، محصورة بجماعة محدودة أصغر من الدولة، وتتعايش في كنفها مع جماعات أخرى.

في الأوضاع الموسومة بالتعدد اللغوي، قد تضطر الدول أحيانا إلى ترقية هذه اللغات المغلوبة على أمرها أو تلك، أو على العكس، قد تجرد هذه اللغة أو تلك من المنزلة التي تتمتع بها، وباختصار إلى تغيير منزلة ووظائف اللغات الاجتماعية المتعايشة. (كالف، 2006، ص 118)

4- أهداف السياسة اللغوية الاستعمارية في الجزائر:

كانت فرنسا تعتقد واهمة إلحاق الجزائر بفرنسا الكبرى، حيث كانت تصف عاصمتها بباريس الصغرى ولم يخطر ببال الفرنسيين أن يأتي يوم يضطرون فيه لمغادرة لذا فقد حاربت اللغة العربية وحاولت فرنسا الأرض والشعب، «الفرنسية» الجزائر كما أجبرت الجزائريين على تعلم الفرنسية، ومنعت تدريس العربية حتى في المساجد، بل وحولت الصراع بين العربية والفرنسية إلى تناحر بين العربية والأمازيغية وبين الفصحى والعامية. إذ أول ما يقوم به المحتل هو ضرب لغة الدولة المختلة، لأنه يعرف من أين تأكل الكتف، يعرف جيدا أن اللغة عامل توحيد وتفريق في آن واحد، لهذا نراه يركز بإتقان على فرض لغته قولاً وفعلاً.

عمدت الإدارة الفرنسية إلى تقسيم اللغة العربية إلى ثلاث لغات لا قيمة لها، ويمكن إهمالها جميعاً في التعليم اعتماد الفرنسية بديلاً حتمياً عنها :

أ. عربية عامية يستعملها الشعب وهذه لا قيمة لها، ومن ثم ليست مادة صالحة للتعليم في المدارس.

ب. عربية فصحي ' لغة القرآن ' وهذه مثلها مثل اللغتين اليونانية واللاتينية تعتبر لغة ميتة لا تواصل بها ولا قيمة لها.

ج. عربية حديثة وهي معروفة بصورة باهتة في الجزائر لأنها نتاج بعض المتعلمين، وهي في الحقيقة لغة أجنبية وأداة للقومية العربية ولذلك يجب إبعادها عن برامج التعليم (تركي، 1981، ص 131)

إن خطر هذا الازدواج المتمثل في اللغة العامية يكمن في جوانب أساسية كبيرة من جوانب حياتنا، فالفصحى التي هي لغة العلم والدين هي الوطن الروحي لنا، إنها رمز للوحدة والتواصل بين أفراد الأمة العربية، أما العامية فإنها الخصم الحقيقي لأي توحيد أو تقارب، إنها دليل التعدد والتمزق ورمز للفرقة والتباعد، إنها نذير انهيار لكل منجزات الأمة وتفتيت لجهودها. (كايد، 2002، 69)

نرجع الآن إلى اللغة العربية وما جر لها، فإذا أدخلت إلى المدرسة الفرنسية كمادة بالنسبة لأبناء الجزائريين، فمعاملتها بالمدرسة كان كلغة أجنبية، وليس وطنية، علموها بالحرف اللاتيني عن طريق المبشرين والآباء البيض، علموها كلغة دارجة وهذا لتساعد من عقد العزم على تشتيت الجزائر إلى طوائف وأقليات، وبهذا قاوموا اللغة العربية الفصحى بكل ما لديهم من قوة ووسائل لأنهم يدركون أهمية اللغة الوطنية في بناء الأفراد ووحدة الشعوب. (برامة، 2017، 417)

ذلك أن عهداً طويلاً من الاحتلال الفرنسي - بكل ما حمل من إقصاء للغة العربية وقضاء على الجهود المبذولة في سبيل بقائها واستمراريتها، وانتهاج كل السياسات التي تحول دون انتشارها، من استهداف لرموزها، و غلق لمدارسها، خاصة تلك التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي بدا واضحاً أن الإقبال عليها من الطلبة كان واسعاً جداً، ومنع للمدرسين عن تلقينها إلا بمراقبة فرنسية، وعلى نطاق محدود - كل ذلك كان يهدف أولاً وأخيراً إلى القضاء على هذا المقوم المهم في حياة الأمة وإحلال لغة غريبة دخيلة تساعد الاستعمار على تحقيق غايته الكبرى ممثلة في فرنسا الجزائر وجعلها جزءاً مهماً من فرنسا. (حينوني، 2017، ص 120)

وقد كان لهذه السياسة انعكاسات على الشعب الجزائري، تظهر جلياً في النقاط التالية :

-ظهور اللغة الفرنسية على الساحة اللغوية الجزائرية لم يكن ظهورا بريئا.

-العامية شكلت الخطوط الخلفية للفصحى؛ لأن العربية الفصحى خنقت في المجالات الحيوية؛ أما الأمازيغية فحاولت فرنسا جعلها شوكة في خاصرة الكيان اللغوي الجزائري.

-السياسة اللغوية التي رسمتها فرنسا للجزائر كان هدفها إحداث تغيير اجتماعي كبير عن طريق الفرنسية.

-لقد كان لفرنسا سياسة لغوية خاصة لجزائر، رتبت فيها الأولوية لنشر الفرنسية على حساب اللغة.

-تكوين فرنسا لنخبة جزائرية فرنسية اللسان، مثقفة ثقافة غربية، منبهة بمدنيتهما، حظيت بمناصب عمل، فأبدت الإخلاص للمستعمر وتنكرت لأمتها و لغتها و طالبت بتعويضها لفرنسية. وهذا أدخل جماعة النخبة في صراع مع الذات ومع المحافظين الوطنيين.

-العربية الفصحى و العامية و الأمازيغية كانت تنعم لتعايش والاستقرار منذ قرون، إلا أن السياسة اللغوية الفرنسية حاولت إدخالها في علاقة قوة وصراع؛ ليخلو الجو للغتها فتُسود وسط الفرقة بوصفها حلا محايدا يرتضيه الجميع.

-السياسة اللغوية الفرنسية في الجزائر كانت سياسة تقويضية لكل البنى اللغوية والاجتماعية المتعايشة.(دربال، 2011، ص 36-37)

المؤسسات التعليمية الفرنسية في الجزائر وعدد التلاميذ المسلمين بها:

وحين أنشأت مدارس ابتدائية فرنسية موجهة للجزائريين سميت باسم خاص، وهو المدارس العربية – الفرنسية، وكان عددها قليلا جدا، ومحتوى برامجها لا يتجاوز غسل المخ وتوجيه جيل من الجزائريين نحو الفرنسية وقطعه عن جذوره، وذنبه الأسرة والمجتمع من ورائه. وسنرى أن عدد هذه المدارس سنة 1970 لم يصل في يوم من الأيام إلى الأربعين في الجزائر كلها، وكان يشرف عليها ضباط المكاتب العربية بعنيتهم وتعاليمهم. وإلى جانب هذا المظهر من مظاهر التمييز، فإن هذه المدارس قصد بها فئة واحدة من الجزائريين وهم أبناء الموظفين لدى الإدارة الفرنسية – من قياد وباشغوات وقضاة الخ. ولم تكن المدارس مفتوحة لكل الجزائريين. (سعد الله، 1998، ص 285)

وكانت فرنسا تأمل بوجه خاص أن تغزو الجزائر أخلاقيا عم طريق المدرسة. وقد ورثت الجمهورية الثالثة سياسة أهلية في إنشاء المدارس، ففي عام 1870، كانت تعمل 36 مدرسة ابتدائية عربية-فرنسية (1300 تلميذ مسلم)، ومعهدان عربيان-فرنسيان، وثلاث مدارس دينية إسلامية. ولكن جمهوري الجزائر توصلوا إلى إغلاق المدارس والمدارس العربية وتركوا المدارس الدينية تضعف، فلم يبق في عام 1882 سوى 16 مدرسة ابتدائية. وأغضبت " سياسة التزمت الوطني الحمقاء " هذه جول فيري فأراد منذ عام 1880 إنشاء شبكة من 15 مدرسة وزارية تقدم باريس ثلاثة أرباع تمويلها. وفي عام 1883 طبق في الجزائر التشريع المدرسي الفرنسي الجديد، وأثار، كما كتب يقول: "صرخة استياء عامة" وذهلت البلديات الفرنسية حين رأت نفسها يفرض عليها بناء مدارس " لهذا الجمهور من الصعاليك "، فرفضت في مجملها " هذه التجربة الخطرة الباهظة الكلفة " : " إذا عمم التعليم فإن الأهالي سيصرخون بصوت واحد : الجزائر للعرب ! " . وفي عام 1890 كان نحو 10000 طفل مسلم – أي 1.9 بالمائة من المسلمين الذين في سن الدراسة – يرتدون مدرسة عامة أو خاصة.

وفي سنة 1908 كان هناك 33397 تلاميذ مسلمون (أي 4.3 بالمائة من المجموع) يرتادون المدارس في التعليم الابتدائي الفرنسي. ولم يكد عدد الطلاب يتضاعف حتى عام 1930: فرغم توسيع المدارس الملحقة التي عهد بها إلى معلمين من الأهالي فإن النسبة المئوية لم تصل في عام 1914 إلا إلى 5 بالمائة أي (47263 تلميذا من أصل 850000 تلميذ في سن الدراسة)، وفي عام 1922 كان عدد التلاميذ في المدارس 60644 من مجموع 900000 أي 6 بالمائة). وكان التعليم الثانوي الفرنسي لا يقبل وسطيا سوى 84 تلميذا مسلما في السنة قبل عام 1900 و 150 تلميذا قبل عام 1914. وفي عام 1914 تخرج من جامعة الجزائر 34 حامل بكالوريا مسلم و12 مجازا. (أجيرون، 1982، ص 112، 113)

وتحت إلهام الجزائريين أيضا تأسست بعض المدارس ذات الطابع الفرنسي. وليس معنى ذلك أن الجزائر كانت خالية من المدارس، بالعكس، فقد عرفنا أنه كان في مدينة الجزائر وحدها عدد كبير من الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا التي كانت متعاونة على نشر التعليم من مال الأوقاف. ولكن استيلاء الفرنسيين على هذا المال جعل المدارس تختفي والعلماء يهاجرون والتعليم يكاد ينتهي. والواقع أن الفرنسيين كانوا خلال المرحلة التي نحن بصدددها منشغلين بالغزو والتجهيل لا بالثقافة والتعليم. فخلال السبع السنوات الأولى من الاحتلال لم يدخل المدرسة العربية الفرنسية الوحيدة (تأسست سنة 1836 فقط) أكثر من 90 تلميذا.

ومن جهة أخرى، أسس الفرنسيون معهدا في باريس لتدريس العربية الدارجة للفرنسيين سنة 1839 م، أطلقوا عليه اسم "الكوليج العربي". ومن بين مهامه الترجمة من العربية الدارجة بحيث يتخصص فيها شبان فرنسيون، وهكذا سيصبح المعهد، حسب تعبير مؤسسيه 'مشتلة' للمترجمين المقدر لهم العمل في الجزائر (سعد الله، 1992، ص ص 252-253)

5- الدراسات الفرنسية حول اللهجات وبالخصوص اللهجات الأمازيغية:

لما وفد الاستعمار على الجزائر عمل على إحياء اللهجات والنغرات قصد إفشاء الفُرقة بين الشعب الذي وحّده الدين واللغة العربية، حيث كانت كل لهجة لا تتعدى محيط القبيلة أو العشيرة، فعندما انتبه المستشرقون الذين واكبوا الحملة إلى هذه الخاصية، نشط بعضهم في البحث عن أصول هذه اللهجات، وعكفوا على إحيائها وبعثها، وذلك بالترويج لها من خلال تصنيف الكتب عنها والتعريف بها، فهذا الجهد له مشروعيتة العلمية إلا أن خلفيته كانت كثيرا ما تضرر السوء للغة العربية الفصحى، فهم حاولوا أن يشغلوا أذهان الناس بلهجاتها الضيقة لكي يتسنى للمستعمر تهيمش اللغة العربية وإقصائها.

لقد كانت الإدارة الفرنسية تشجع على معرفة اللغة العربية للفرنسيين لا حبا فيها أو تقديرا لها، ولكن باعتبارها لغة وظيفية وأداة للحكم والسيطرة ومعرفة أفكار وتاريخ الجزائريين وما يدور بينهم في الأسواق والزوايا والبيوت، وما في كتب الفقه والأدب من نصوص وقوانين وقيم. وكانوا يقولون إن اللغة العربية صعبة، ومع ذلك لا بد منها، خصوصا عندما ارتبطت بها الترقيات الإدارية والوظائف الرسمية. فكانت العربية المكتوبة أو الشفوية شرطا لازما.

في 15 أبريل 1845 صدر مرسوم ملكي يجعل معرفة اللغة العربية إجبارية على كل المترشحين للوظائف المدني في الجزائر ابتداء من سنة 1847. وقد استبشر بهذا المرسوم أنصار حلقات اللغة العربية مثل شيربونو وبرينييه. وكان الحاكم العام المارشال بوجو، قد شجع على ذلك، وهو الذي كان يفرض حتى قبل صدور المرسوم. (سعد الله، 1998، ص ص 312-313)

ويعتبر التعليم في هذه الحلقات من التعليم العالي، رغم أن المصطلح (العالي) قد لا يصدق عليه. لأن برينييه مثلا كان يلقي درسا في اللغة الفصحى أو المكتوبة أو الأدبية، ودرسا آخر في الدارجة أو الشفوية. وهو يكرر ذلك في عدة مستويات. أما حلقتا العربية في قسنطينة ووهران فقد كانتا بالدارجة. (مشري، 2017، ص ص 313-314)

وشر ما عوملت به لغة الضاد في بلدنا، محاولة المحتل إلحاقها باللغات البائدة، مثل اليونانية القديمة، واللاتينية، وتعويضها باللهجات الجهوية المحلية، اعتمادا على قواعد نحوية وصرفية، ابتكرها ابتكارا، تلقن بالفرنسية، وبنفس المصطلحات الخاصة باللاتينية. فعوضوا مثلا، المنادى بـ **le vocatif** والمفعول به بـ **accusatif** " والمضاف إليه بـ **Le génitif** وبينما كانت الفصحى غائبة قانونيا من التعليم الابتدائي، فقد أجبر التلميذ الجزائري على "دراسة" اللغة العامية من خلال حصتين في الأسبوع، توكل إلى "شيخ العربية" وكأنه لم يكن يختار غالبا لهذه المهمة، إلا لجهله قواعد التعليم. (بن القبي، 2017، ص ص 211-212)

التجديد الآخر الذي حدث سنة 1848 هو إلغاء اسم (الكوليج) وإحلال اسم الثانوية محله، فأصبح يطلق عليه (ليسيه الجزائر)، وهو إطلاق غير دقيق، كما لاحظنا، لأن مستوى التعليم فيه كان متوسطا...وأصبحت اللغة العربية التي تدرس في هذه "الثانوية" هي العربية الدارجة. (سعد الله، 1998، ص 299-300)

وعلي صعيد آخر، أُدرجت الأمازيغية في المؤسسات التعليمية في وقت مبكر، خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر بالمدرسة العليا للآداب في الجزائر العاصمة التي أصبحت تسمى فيما بعد بكلية الآداب فضلا على دار المعلمين (école normale) في بوزريعة بأعالي العاصمة، التي كانت تعتبر مشتلة المعلمين الجزائريين. استحدثت شهادة اللغة القبائلية سنة 1885 ثم دبلوم في "اللهجات البربرية" سنة 1887.

تكفلت دار المعلمين بالتنسيق مع الجامعة بتوفير تكوين في الأمازيغية لفائدة المعلمين الراغبين في الاستفادة من "المنحة الخاصة" الممنوحة للأساتذة أصحاب الكفاءة (المؤهلين) في البربرية (أو العربية). ومن جهتها، كوّنت كلية الآداب أجيال من الباحثين في البربرية إلى غاية الاستقلال، وقد ترأس كرسي الأستاذية بها روني باسي (René Basset) وأندريه باسي (André Basset) وأندريه بيكار (André Picard) على التوالي. (Chaker, 1996, PP 2644-2645)

وعرفت هذه المرحلة ظهور "العديد من الأعمال العلمية خلال الاحتلال الفرنسي بدراسة الأمازيغية، ويمكن أن نشير مؤلفات بوليفة (Méthode d'enseignement de la langue kabyle)، بن سديرة، بن خواص، هانوطو (Hanoteau)...مع نهاية القرن التاسع عشر، ثم مؤلفات كل من رونييه وأندريه باسي، جون كروزيه (Jean Crouset)، فضلا عن أندريه بيكار (André Picard)، أوستاف دوبون (Depont Ostave)، الخ، مع بداية القرن العشرين". (Bilek, 2006, P86)

6- أهداف تدريس اللهجات الجزائرية في المؤسسات التربوية الفرنسية – اللهجات الأمازيغية أنموذجا:

يقول الدكتور يوسف نسيب في مقدمته لكتاب أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانوطو) لمؤلفه أمحمد جلاوي "نحن نعلم بما توجي إليه واقعي التحاليل التي قام بها العديد من مسجلي الأحداث وموظفي الحاكم العام، والضباط المكلفين بشؤون الأهالي وغيرهم من المبشرين و البحاثة الأوروبيين ، الذين عمدوا منذ القرن 19 إلى دفع دوايب الطاحونة الإيديولوجية الاستعمارية.

و هكذا وعلى خطى الجيش العسكري الإفريقي تتموقع شريحة من العلماء المدنيين الخاضعين في الغالب لوصاية أو كفالة، خاضوا في دراسات ميدانية لأغلب العلوم الاجتماعية المعروفة يومها ك: دراسات لما قبل التاريخ – التاريخ – علم اللهجات – علم الأعراق – الإسلاميات...الخ. (جلاوي، 2001، ص أ)

ويؤكد سالم شاكر وجود استعمال إيديولوجي مكثف من طرف الخطاب الكولونيالي الفرنسي لموضوع "الخصوصية الأمازيغية" (spécificité berbère) ، إلا أنه لا أثر لأية ترجمة ملموسة و فعلية لهذا الخطاب الذي بقي طيلة الفترة الاستعمارية مجرد خطاب تفرقة. (شاكر، 2003، ص 110)

وفي السياق ذاته، يؤكد محند آكلي حدادو أنه "وعلى الرغم من كراسي الأستاذية المستحدثة على مستوى الجامعة أو العلاوات الممنوحة للموظفين الذين يتعلمون القبائلية، ولم يجر التفكير يوما في تدريسها بالمدارس أو أي نوع من الاستعمالات في إدارات المناطق الناطقة بالبربرية". (HADDADDOU, 2002, P137) كما أن هذه الدراسات كانت تتمحور حول اللهجة القبائلية بشكل أساسي.

والرأي نفسه يبديه ليونال غالون حين يشير بأنه "رغم أن فرنسا قد أعلنت استعدادها التام لتبني سياسة مؤيدة للبربر إلا أنها لم تطبقها إلا نادرا، وإذا كان لها الفضل في تأسيس وتطوير الدراسة العلمية للغتهم، فهي لم تفعل شيء يذكر لتوسيع

استعمالها وضمنان إصلاحها اللغوي". (Galland, 2002, P420) ولعل ذلك مردّه استعمال هذه الدراسة كوسيلة لخدمة سياستها الاستعمارية لا غير.

كما يشير الباحث سالم شاكّر إلى أن فرنسا استعملت وجود الأقليات البربرية بشكل منهجي لإنكار أي وجود لهوية وطنية في الجزائر. ولطالما بذلت قصارى جهدها لتوصيف البلاد على أنها فسيفساء من أعراق متناحرة، لم يقو حتى الدين على لمّ شملها. استعملت القضية البربرية منذ بداية الاستعمار استعمالاً سياسياً. كرسّت العلوم الاستعمارية جزءاً لا يستهان به من مجهوداتها لتوضيح وتبيان كل ما من شأنه التمييز بين البربر والعرب... أنه صحيح أن فرنسا استعملت وجود الأقليات البربرية بشكل منهجي لإنكار أي وجود لهوية وطنية في الجزائر. ولطالما بذلت قصارى جهدها لتوصيف البلاد على أنها فسيفساء من أعراق متناحرة، لم يقو حتى الدين على لمّ شملها. استعملت القضية البربرية منذ بداية الاستعمار استعمالاً سياسياً. كرسّت العلوم الاستعمارية جزءاً لا يستهان به من مجهوداتها لتوضيح وتبيان كل ما من شأنه التمييز بين البربر والعرب". (Chaker, 1991, P11)

حاول الاستعمار الفرنسي استعمال البربر لترسيخ هيمنته بواسطة اختلاق العديد من خرافات (ترهات) على غرار تفوق الجنس البربري على الجنس العربي أو الأصول الأوروبية للبربر أو لغتهم... لم يتورّع خصوم اللغة البربرية خلال الحقبة الاستعمارية و إلى يومنا هذا في التذكير بهذه الإجراءات، ذاهبين إلى حدّ الزعم بأن البربرية محض اختراع من طرف الاستعمار الفرنسي هدفه تقسيم الشعب الجزائري. (HADDADDOU, 2002, P137.)

الخاتمة:

رغم كل محاولات الاستعمار الفرنسي الغاشم القضاء على الإسلام واللغة العربية وكذا زرع الفتنة بين الجزائريين من خلال تحفيز دراسة وتدرّيس اللهجات خاصة الأمازيغية منها، غير أنها كللت بالفشل الذريع، بحيث ورغم اختبائها وراء قناع العلمية والموضوعية، ادعت من ورائه سعيها لقصد البحث العلمي لذاته بدون خلفيات ذاتية، حيث لم تزد هذه السياسة إلا زادت من تمسك الجزائريين بدينهم ولغتهم وما ثورة الفاتح من نوفمبر التي شملت كل ربوع الوطن إلا دليل مدوي على هذا الفشل كما أن اللغة العربية منذ ذلك إلى يومنا هذا أعلاماً ومدافعين لا يكلون ولا يتعبون. لكن يبقى السؤال المطروح، هل عدلت الدول الاستعمارية سابقاً عن سياسة الهيمنة الثقافية على الأقل في ضوء سيادة العولمة كنظام أوحّد في العالم؟.

المراجع:

1- المراجع العربية:

أ- الكتب:

- 1- ابن فارس (1979)، معجم مقاييس اللغة، ج 1، تح: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر.
- 2- اجيرون شارل روبر (1982) تاريخ الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، ط 1، بيروت - باريس، منشورات عويدات.
- 3- الضامن حاتم صالح (1989)، علم اللغة، الموصل، مطبعة التعليم العالي.
- 4- أنيس إبراهيم (1965)، في اللهجات العربية، ط 3، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- 5- الخليل بن أحمد الفراهيدي، (2003)، كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هندراوي، ط 1، ج 4، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 6- بريور ماري نوال غاري (2007)، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهم الشيباني.
- 7- تركي رايح (1981)، التعليم القومي، ط 2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 8- جلاوي أمحمد (2001)، أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانوط)، الجزائر، منشورات دار زرياب.
- 9- سعد الله أبو القاسم (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954، ط 1، ج 3، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 10- سعد الله أبو القاسم (1992)، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، ط 1، ج 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 11- شاكّر سالم (2003) الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر، تر: حبيب الله منصوري، الجزائر، دار القصبة للنشر.
- 12- زكريا ميشال (1993)، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية، ط 1، بيروت، دار العلم للملايين.

- 13- كافي لويس جان (2006)، علم الاجتماع اللغوي، تر: محمد يحياتن، دار القصبة للنشر، الجزائر.
- 14- كافي لويس جان (2008)، حرب اللغات والسياسات اللغوية، تر: حسن حمزة، ط 1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة.
- 15- محمد محمد حسين، (1984)، الاتجاهات الوطنية في الشعر العربي المعاصر، ط 2، ج 2، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- 16- مبارك مبارك (1995)، معجم المصطلحات الألسنية، فرنسي-إنكليزي -عربي، ط 1، بيروت، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر.

ب-المقالات (المجلات والدوريات):

- 1- برامة عمار (2017)، " اللغة العربية بين العزة والكرامة والخذلان والمهانة " ، مجلة اللغة العربية، المجلد 07، العدد 12.
- 2- بلعيد صالح (2004)، " اللغة الأم والواقع اللغوي في الجزائر "، مجلة اللغة الأم، دار هومة، العدد 0.
- 3- بن القبي صالح (2017)، " مآسي اللغة العربية طيلة الاحتلال الاستعماري ومآثرها " ، مجلة اللغة العربية، المجلد 07، العدد 12.
- 4- جيمس ميلروي ولسلي ميلروي (2009)، " الأنواع اللغوية و التنوع "، دليل السوسيولسانيات، تر: د. خالد الأشهب ود. ماجدولين الهبي، المنظمة العربية للترجمة .
- 5- حيتوني رمضان (2017)، " اللغة العربية في المدرسة الجزائرية: واقع وإشكالات (دراسة وصفية)" ، مجلة آفاق علمية، مجلد 09، عدد 02.
- 6- خلقي عبد السلام (2009)، " معيرة اللغة الأمازيغية في ضوء بعض التجارب العالمية "، مجلة أسيناك، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، العدد 03.
- 7- دربال بلال (2011)، " السياسات اللغوية في البلاد المستعمرة: الاستعمار الفرنسي للجزائر نموذجا " ، الدراسات اللغوية و الأدبية، العدد 1.
- 8- كايد إبراهيم محمود (2002)، " العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية " ، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية) ، المجلد الثالث – العدد 1-.
- 9- مشري محمد (2017)، " تعدد العاميات في الجزائر عامل وأد للغة العربية الفصحى داخل المؤسسات التعليمية " ، مجلة دراسات وأبحاث، العدد 27.
- 2- المراجع الأجنبية:
- 1- Cherifa Bilek, « Genèse de l'enseignement de tamazight depuis le XIX siècle », Journées d'étude sur la genèse de l'enseigneemnet de Tamazight depuis le XIX siècle du 10 au 13 juin 2006.
- 2- Jean Dubois, Mathée Giacomo, Louis Guespin et autres, Dictionnaire de linguistique, Larousse-Bordas/VUEF, Paris, 2002.
- 3- Lionel Galland, Étude De linguistique Berbère, Société de linguistique de Paris LXXXIII, Peeters Leuven, Paris, 2002.
- 4- Mohand –Akli HADDADDOU, «La langue berbère en Algérie : entre négation et semblant de reconnaissance», Actes du colloque international in Tamazight face aux défis de la modernité, Boumerdès 15-17 Juillet 2002, HCA, Alger, 2002.
- 5- Salem Chaker, Encyclopédie berbère, Volume 17, ÉDISUD, Aix-en-Provence, 1996.
- 6- Salem Chaker, Manuel de linguistique Berbère, Tome I, Edition Bouchène, Alger, 1991.